(٣١) يهدي من يشاء

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على عبده ونبيه محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد: يقول الشيخ رحمه الله، بسم الله الرحمن الرحيم: (يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ، وَيَعْصِمُ وَيُعَافِي فَضْلاً، وَيُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ، وَيَخْذُلُ وَيَبْتَلِي عَدْلاً).

هذه المسألة أيها الإخوة تسمى عند العلماء **مسألة الهدى والضلال**، وقد قامت الأدلة المتكاثرة على أن الله عز وجل يهدي من يشاء ويضل من يشاء في آيات كثر، أن الله عز وجل يهدي من يشاء ويضل من يشاء. وهذا هو مذهب أهل السنة والجماعة أن الهدى والضلال بيد الله عز وجل، وأنه إن هدى فبفضله وإن أضل فبعدله { أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ} [الملك: ١٤] أما المعتزلة فقد نازعوا، نازعوا في مسألة الهدى والضلال **وقالوا: معنى الهدى من الله، بيان طريق الصواب. ومعنى الإضلال من الله، تسميته ضالاً فقط، تسمية العبد ضالاً.** فليس هو يهدي حقيقة هداية يحصل بها الفعل؛ **وإنما فقط الهداية من الله الدلالة**، وبيان طريق الصواب والحق. وأما الإضلال من الله **ويضل من يشاء** فليس المقصود الإضلال حقيقة؛ وإنما كون الله سماه ضالاً في علمه، لا أنه أضله حقيقة، بناءً على أصلين فاسدين من أصولهم:

- **الأصل الأول: يعني قولهم أنه يجب على الله فعل الأصلح**، يجب على الله هكذا تقول المعتزلة، يجب على الله فعل الصلاح أو فعل الأصلح. فإذا كان ثمة هدى وضلال، فالواجب على الله أن يفعل الهدى ولا يفعل الضلال.
- **والأصل الثاني** الذي أصلوا عليه مسألة الهدى والضلال، **أن أفعال العباد مخلوقة لهم وأن الله عز وجل لا شأن له في خلق أفعال العباد.** فليس هو الذي يهدي حقيقة، وليس هو الذي يضل حقيقة.

أما أهل السنة والجماعة فقد بينوا أن الهداية من الله على نوعين: هداية توفيق وإلهام، وهداية دلالة وبيان. الهداية نوعان:

هداية توفيق وإلهام: وهذه تختص بالله سبحانه وتعالى. هداية التوفيق والإلهام، بمعنى هداية القلب إلى قبول الحق والرضا به والفرح به، هذه تختص بالله عز وجل لا يملكها أحد، وعليها قول الله عز وجل {إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ } [القصص: ٥٦] فنفاها الله سبحانه وتعالى عن أولى الناس، وهو نبيه صلى الله عليه وسلم؛ لأنها من اختصاصه سبحانه تعالى. فالله تعالى له وحده هداية التوفيق والإلهام؛ لأن قلوب العباد بين أصبعين من أصابعه يقلبها كيف يشاء.

والنوع الثاني من الهداية هي هداية الدلالة والبيان والإرشاد، وهذه تكون من الله عز وجل، ويجريها الله على أيدي أنبيائه ورسله، ويجريها الله عز وجل على ألسنة العلماء والدعاة والوعاظ، ويدل عليها قول الله عز وجل: {وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى} [فصلت: ١٧] لو كان هداهم هداية توفيق وإلهام. ماذا كان؟ لما كفروا. لكن المقصود هنا هداية الدلالة والبيان {وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ} أي دللناهم وبيّنا لهم { فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى} إذن هذه الهداية هداية دلال وبيان. ومن شواهدها أيضاً قول الله عز وجل عن نبيه صلى الله عليه وسلم {وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} [الشورى: ٥٢]أثبت له الهداية.

إذن يزول التعارض الظاهر بين قوله تعالى{إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ } [القصص: ٥٦]وبين قوله {وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} [الشورى: ٥٢] فبينهما تعارض ظاهر. **لكن الجمع بينهما أن الهداية المثبتة للنبي صلى الله عليه وسلم هي هداية الدلالة والبيان والإرشاد، والهداية المنفية هي هداية التوفيق والإلهام**، فهذه يختص بها الرب سبحانه وتعالى.

ويتبين بهذا مذهب أهل السنة، أن الهدى والضلال بيد الله سبحانه وتعالى، فهو الذي يهدي من يشاء ويضل من يشاء، ولذلك يُطلب منه. قال الله عز وجل في الحديث القدسي: ((**يا عبادي كلكم ضال إلا من هديته فاستهدوني أهدكم**)).

فينبغي ويجب على الإنسان أن يطلب الهدى من الله سبحانه وتعالى. ليس الشأن بأن يعرف الإنسان المعلومة. كم من إنسان يعرف أن هذا حق وهذا باطل، هذا صواب وهذا خطأ، لكن قلبه محجوب عن سلوك طريق الهدى. ألم تروا أن فئاماً من المستشرقين درسوا دين الإسلام وأحاطوا به علماً؛ بل وخدموه أحياناً ومع ذلك قلوبهم مصروفة. لم يقبلوا الإسلام، ولم يلامس شغاف قلوبهم. وتجد أن من الناس من يكون عنده أدنى علم، بصيص من العلم ونور الإيمان، فيقبل الهدى الذي بعث الله به نبيه صلى الله عليه وسلم.

قال: (وَكُلُّهُمْ يَتَقَلَّبُونَ فِي مَشِيئَتِهِ بَيْنَ فَضْلِهِ وَعَدْلِهِ) نعم قال الله عز وجل{هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ} [التغابن: ٢]يجب أن نؤمن بهذا أيها الإخوة، ونعلم أن الله عز وجل بسابق علمه وحكمته ومشيئته قد قسم العباد، ((فقال هؤلاء في الجنة ولا أبالي وهؤلاء في النار ولا أبالي)).

وكان سفيان رحمه الله يحدث بهذا الحديث، حديث القبضتين فيبكي، يبكي رحمه الله ويقول: "ليت شعري في أي القبضتين أنا؟ هل من سبيل إلى العلم بذلك؟ لا سبيل، هذا مغيب. لكن على العبد أن يحسن الظن بربه، ويعلم أن من تقرب إليه شبراً تقرب إليه ذراعاً. ومن تقرب إليه ذراعاً، تقرب منه باعاً. ومن أتاه يمشي، أتاه هرولة. فيحسن الظن بمولاه عز وجل، وإلا لا سبيل للعلم بهذا.

ففي حديث عبد الله ابن مسعود رضي الله عنه، قال: (حدثني الصادق المصدوق إن أحدكم ليجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوماً نطفة ثم يكون علقة مثل ذلك ثم يكون مضغة مثل ذلك ثم يرسل إليه الملك فينفخ فيه الروح ويأمر بأربع كلمات بكتب رزقه وأجله وعمله وشقي أو سعيد فوالله الذي لا إله غيره إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب _ يعني كتاب القدر _ فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها) عياذاً بالله.

فالواجب أن يؤمن الإنسان بقدر الله عز وجل، صحيح أن هذا الحديث يوجب الخوف عند العبد، ولكنه خوف يحمله على الاحتراز والاحتراس، وعدم الركون إلى نفسه؛ بل يركن إلى مولاه، ويسأل الله دوماً الهدى والثبات { رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا } [آل عمران: ٨] هذا ثمرة هذا الحديث. ليس معنى ذلك أن الإنسان يمشي على وجل ويقول: ربما أعمل ثم يختم لي بسوء بالنار، ليس المقصود التخويف والرعب وعدم الاستقرار، والاضطراب النفسي. لا، المقصود أن الإنسان يعلم أن الهدى بيد الله، وأن يطلبه من مولاه، وأن يرجو الله ويخافه، ويكون معلقاً بين الخوف والرجاء.

هذا ثمرة العلم بهذا الحديث، وأنتم تعلمون من الشواهد ما يدل على ذلك. **أُصيرم بني عبد الأشهل** كان راداً لدين الإسلام، فلما خرج المسلمون إلى أُحد، ألقى الله تعالى في قلبه حب الإسلام، فخرج وقاتل معهم وقُتل، حتى أوتي وهو يتشحط في سياق الموت، فقال لمن حضره: أقرء رسول الله السلام، وأقرء قومي السلام وقل لا عذر لكم أن يُنفذ إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم. فكان أبو هريرة يلغز به ويقول: من رجل دخل الجنة لم يسجد لله سجدة؟ في آخر لحظة، وقد يقع _ نسأل الله العافية _ لبعض الناس من الفتنة ما يختم له بسوء.

وقد جاءت في بعض ألفاظ الحديث: ((فوالله الذي لا إله غيره إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة فيما يبدو للناس)) فيكون هذا من باب المراءاة والتظاهر أو غير ذلك.

فالمهم أن مثل هذه النصوص توجب للإنسان أن يتعلق بربه، ولا يركن إلى نفسه. فإن من الناس من قد يداخله نوع غرور وعجب وزهو، فيظن أنه قد ضمن الجنة في يمينه، كقول ذاك الذي قال ويُتندر به حينما كان يعظ قوماً، فيأمرهم بطاعة الله وترك معاصيه، فيقول لهم: أنا وهو أنا ما ضمنت الجنة فكيف أنتم؟ عياذاً بالله، هكذا نسأل الله العافية. يعني على العبد أن يعلم أن قلبه بين أصبعين من أصابع الله، وأنه لو شاء الله أزاغه، ولو شاء أقامه، فيضل معلقاً بربه. هذه ثمرة مثل هذه الأحاديث.

فقوله: (وَكُلُّهُمْ يَتَقَلَّبُونَ فِي مَشِيئَتِهِ بَيْنَ فَضْلِهِ وَعَدْلِهِ) حقاً يعني إن شاء الله أكرمه وأنعم عليه، فجعله

من قبضة اليمين، وإن شاء الله الأخرى. نسأل الله العافية فيكون العبد معلقاً بربه.

قال: (**وَهُوَ مُتَعَالٍ عَنِ الأَضْدَادِ وَالأَنْدَادِ**)، (**الأَضْدَادِ وَالأَنْدَادِ**) **الضد هو المخالف، والند هو المثيل.** فالله سبحانه وتعالى متعال عن الأضداد والأنداد سبحانه وتعالى. فلا أحد يقاويه ممن يخالفه، ولا أحد يماثله سبحانه.

فهذه الجملة فيها رد على المعتزلة؛ لأن المعتزلة زعموا أن العبد يخلق فعل نفسه، والله عز وجل عليٌ عن ذلك أن ينازعه أحد في ربوبيته؛ لأن الخلق من خصائص الربوبية. والمعتزلة تزعم أن العبد يخلق فعل نفسه، يخلق طاعته، يخلق معاصيه. فالله تعالى متعالٍ عن الأضداد والأنداد.

(**لا رَادَّ لِقَضَائِهِ، وَلا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ، وَلا غَالِبَ لأَمْرِهِ**) جمل متقاربة المعنى.

(**لا رَادَّ لِقَضَائِهِ**) إذا قضى أمراً، فلا يمكن أن يرد، ما يمكن، من ذا الذي يرد قضاء الله عز وجل.

(**وَلا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ**) لا معقب يعني لا مؤخر. المعقب يعني المؤخر. فلا معقب لحكمه، لا يملك أحد التأجيل الاستئناف فيما قضى الله وقدّر.

(**وَلا غَالِبَ لأَمْرِهِ**) سبحانه { إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ } [آل عمران: ١٦٠]كل هذه الجمل جمل متينة رصينة في إثبات قدر الله عز وجل.

قال: (**آمَنَّا بِذَلِكَ كُلِّهِ، وَأَيْقَنَّا أَنَّ كُلاًّ مِنْ عِنْدِهِ**) هكذا يجب، يجب الإيمان. والإيمان فيه معنى الأمان. تأملوا أيها الإخوة، ولذلك من عرّف الإيمان بالتصديق، أو عرّفه بالإقرار، فهي عبارات قاصرة لا تحمل معنى الإيمان؛ لأن الإيمان تصديق معه إقرار وأمان أمن وتسليم ورضا، فهي أدل في بابها من هذه المفردات. وسيأتي إن شاء الله الكلام عن الإيمان وحقيقة الإيمان.

المهم أن الشيخ رحمه الله يحكي عقيدة أهل السنة والجماعة **قال:** (**آمَنَّا بِذَلِكَ كُلِّهِ**) أي المشار إليه مما سبق تقريره من مسائل القدر.

(**وَأَيْقَنَّا**) اليقين معناه الاستقرار، من قوله: يقن الماء في الحوض إذا استقر.

(**وَأَيْقَنَّا أَنَّ كُلاًّ مِنْ عِنْدِهِ**) طيب، إذن هكذا ينبغي لأهل الإيمان أن تطيب نفوسهم بقدر الله عز وجل، وألا يعترضوا على الله لا في قدره ولا في شرعه. هذا اليقين لابد منه أيها الإخوة. هذا الرضا، حسن الظن بالله عز وجل كما أنه لا يحل لك ولا يجوز أن تعترض على شرع الله عز وجل، أيضاً لا تعترض على قدره؛ بل أحسن الظن بربك في شرعه وقدره، واعلم أن ما يجريه الله هو عين الحكمة، هو عين الحكمة في التدبير وفي التشريع.

ولهذا قال الله عز وجل: **{مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ} [التغابن: ١١]**: قال علقمة –رحمه الله–، قال: هو العبد تصيبه المصيبة فيعلم أنها من عند الله فيرضى ويسلم.

هذا من جنس قول المصنف هاهنا: آمنا به وأيقنا، آمنا بذلك كله وأيقنا أن كلاً من عنده، قال: هو العبد تصيبه المصيبة فيعلم أنها من عند الله فيرضى ويسلم. لا يكون في ملكه ما لا يريد، سبحانه وبحمده.

قال: ثم قال: والميثاق الذي أخذه الله تعالى من آدم وذريته حق: نعم، مسألة الميثاق لها صلة بباب القدر، وذلك أن فيها حجة، يقول الله عز وجل في سورة الأعراف: **{وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ (١٧٢) أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ } [الأعراف: ١٧٢، ١٧٣]**: دلت الآية على أن الله سبحانه تعالى قد أخذ ميثاقاً من بني آدم، هذا الميثاق من العلماء من حمله على أمر حسي وقع: وهو أن الله سبحانه وتعالى مسح ظهر آدم ونثر منه ذريته كأمثال الذر في بطحان، في وادي نعمان الذي هو عرفة، ويعني في مكان فسيح واسع جداً، وأشهد هم على أنفسهم: ألستم بربكم؟ قالوا: بلى. فحملوه على معنى حسي وقع، وإن كان هذا الأمر نحن لا نذكره، لا أحد منا يذكر هذا الموقف، لكن مقتضى كلامهم أن هذا قد جرى ثم نُسخ من الأذهان.

والقول الثاني: أن المراد بذلك ميثاق الفطرة.

يعني أن الله سبحانه وتعالى قد فطر العباد على الإيمان به وتصديقه واعتقاد صفات الكمال له، ولا شك أن هذه الفطرة حق، ولهذا قال ربنا سبحانه وتعالى: **{فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ } [الروم: ٣٠]** ، شوف: **{لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ}**: فالله حين خلقنا أودع فينا هذه الفطرة: وهي الإسلام، الإسلام بمعنى الاستسلام له واعتقاد استحقاقه للألوهية سبحانه، وأن حقه منا العبودية المطلقة، فما من إنسان على الفطرة السوية لم يتأثر بشبهات المشبهين وضلالات المضلين، لم يتأثر بتحريف شياطين الإنس والجن إلا ويجد في قلبه نزوعاً إلى الإيمان بخالق عليم قادر تنبغي له الأسماء الحسنى وصفات الكمال، هكذا، لو خُلي الإنسان على فطرته الأصلية لاعتقد هذا الاعتقاد، ولهذا: جاء في الحديث القدسي: (خلقت عبادي حنفاء كلهم، فاجتالتهم الشياطين)، شياطين الإنس أو الجن، (خلقت عبادي حنفاء كلهم): يعني مائلين عن الشرك إلى التوحيد، (حنفاء)، هذا معنى الحنف، (فاجتالتهم الشياطين): إذن ثَم مؤثر خارجي.

وأيضاً: يشهد لهذا المعنى قول النبي ﷺ: (كل مولود يولد على الفطرة)، أو: (ما من مولود إلا ويولد على الفطرة)، وفي بعضها: (على الملة، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه)، ولم يقل: أو يأسلمانه، لماذا؟ لأن الإسلام

هو الفطرة، فمن بقي على فطرته فهو باق على الإسلام، لكن تأثير الأبوين يكون بحرفه وصرفه عن ذلك، عن تلك الفطرة الأصلية التي هي الإسلام فيهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه، وفي هذا النص دليل –يا رعاكم الله– على أن اليهودية والنصرانية ليستا ديناً لله عز وجل، وإنما هما تحريف لدين الله، أليس كذلك؟ لأنه قال: (فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه)، فهما والمجوسية سواء في الانحراف عن الدين الحق، عن ملة إبراهيم، فانتبه لهذا المعنى.

فهذا هو ميثاق الفطرة الذي غرسه الله تعالى في النفوس فالله سبحانه وتعالى قد جعل في كينونة كل إنسان وفي بنيته هذا الإيمان، وهو دليل على الإنسان وحجة عليه، يعني هو أحد الحجج التي تكون لله عليه، من أن الله سبحانه وتعالى أودعه هذا الأمر، وإن كان الذي تقوم به الحجة ويترتب عليه الثواب والعقاب هو الحجة الرسالية، لكن الحجة الرسالية تستند وتستنبط هذه الفطرة، فيكون لكلام الله ولكلام أنبيائه تصديق في قلب الإنسان لما أودعه الله تعالى فيه في الميثاق.

وأما الحديث الوارد في تفسير الآية، أو تفسير الآية بالأحاديث الواردة –وإن كان في كل منها مقال– وأمثلها حديث ابن عمر رضي الله عنه فإنه في الحقيقة لا يصلح تفسيراً، حتى لو ثبتنا حديث نعمان، وادي نعمان ومسح الله تعالى لظهر آدم ونثره ذريته كأمثال الذر، إلا أنه لا يصلح تفسيراً للآية، لأنك لو تأملت في الآية، لوجدت أنها لا تتناسب مع الحديث، فهذا مقام وهذا مقام، إذ الآية تقول: **{وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ} [الأعراف: ١٧٢]** ، لم يقل: من ظهر آدم، صح؟ **{مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ}**، فنسق الآية لا يتفق مع نسق الحديث، وقد حرر ابن القيم –رحمه الله– هذا المبحث في كتابه الجليل: شفاء العليل في القضاء والقدر والحكمة والتعليل، وذكر الأحاديث الواردة في هذه وتكلم عليها وبين علاقة الآية بالأحاديث، وبهذه المناسبة أقول لكم –معشر طلبة العلم–: أن هذا الكتاب من أحسن الكتب التي أُلفت في القضاء والقدر، شفاء العليل في القضاء والقدر والحكمة والتعليل، من جهة محتواه، فقد احتوى نصوصاً وآثاراً، جمع فأوعى، كل ما يتصل بموضوع القضاء والقدر من قريب أو بعيد، أو معظمه، لا ندعي العصمة لكتاب غير كتاب الله، ثم لحسن ترتيبه وحسن لغته، وأنتم تعرفون ابن القيم –رحمه الله– كيف ألان الله له البيان كما ألان لداوود الحديد، فأُوصي إخواني وأبنائي طلبة العلم بالعناية بهذا الكتاب، فمن أراد أن يفقه الإيمان بالقدر فليعتن بكتاب: شفاء العليل في القضاء والقدر والحكمة والتعليل.

وصلى الله على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين.